إلى اكتشاف تراثنا

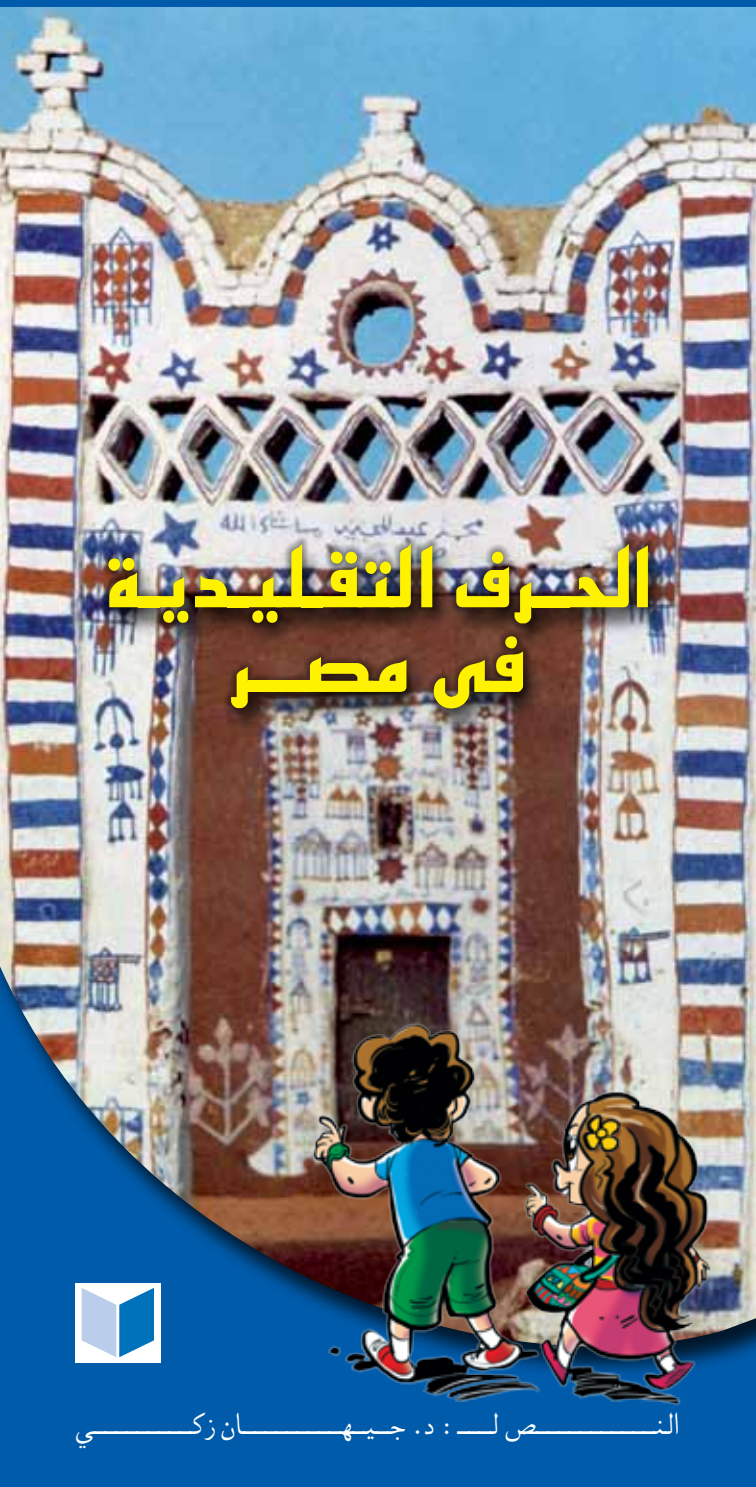

الحرف التقليدية في مصر

النص لـ : د. جيهان زكي

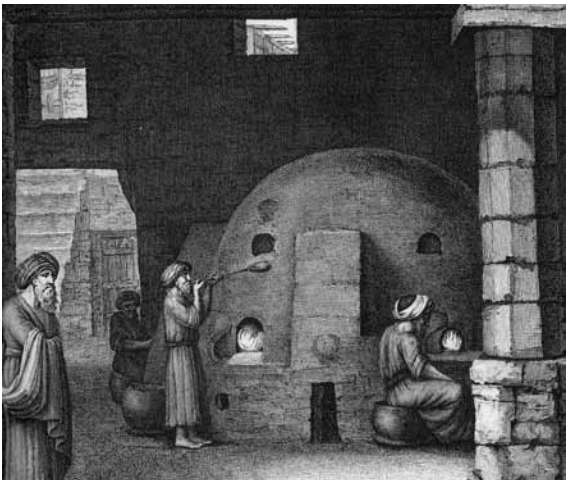

En haut, le potier au travail et sa production. En bas, un atelier où l'on souffle le verre. (D'après la *Description de l'Égypte*, Paris, 1809/1829).

في الأعلى،صورة من كتاب وصف مصر ١٨٠٩/١٨٢٩، تُظهر تفاصيل صناعة الفخار. في الأسفل،صورة من كتاب وصف مصر ١٨٠٩/١٨٢٩، تُظهر تفاصيل نفخ الزجاج.

إلى اكتشاف تراثنا

الحرف التقليدية في مصر

شئ من التاريخ

هل تعلم يا صديقي القاريء أنه منذ فجـر التاريخ، اشتهرت قرى ونجوع وادي النيـل بمنتجـات يدويـة مـن صنـع الإنسان البسيط، فكان الإنسان الأول يصنـع بنفسه كل مـا يحتاج إليه لمواجهـة ضروريـات الحيـاة والظروف التي تحيط به. الحصير التي يجلس عليها، وجريد النخل الـذي يرتص لتكوين سقـف ليحميه من تقلبـات الطبيعة، والأواني الفخارية التـي يطهو فيها طعامه، والمنسوجـات اللازمـة للملابس التي تكسوه، وعظام الحيوانات التي ينحتها كأدوات لحياتـه اليوميـة. كلهـا تتميز ببراعة التفاصيـل ودقة الحرفية التي يمكننـا أن نتأملها من خـلال ما تبقى منهـا ومعروض حالياً في أروقة المتحف المصري وكذلك الأجنحة المصرية لبعض المتاحف العالمية.

ولما كانت هذه المنتجات اليدوية ترتبط علـى نحو وثيق بالإنسـان، فقد انتقلت منـه إلى أبنائـه ثم أحفـاده عن طريق التلمذة البسيطة في داخل نطاق الأسرة أو القبيلة، وبفضل المهـارة المكتسبة عن طريـق ممارسة نفـس الحـركات لفترة طويلة من الزمن، تكوَّن لدى الإنسان ما يعرف بـ «الدراية» أو الحرفية.

اصل الحرفة

شكَّلـت الطبيعـة التـي تحيـط بالإنسـان - منـذ قـديم الزمـن - يـا صديقـي القـاريء، مصدراً هامـاً للمـوارد المستخدمـة لصناعـة أدواتـه، فسرعان مـا تعامل معهـا واستخدمها وطوَّعها لتلبية احتياجاتـه ومتطلباته، فعلى سبيل المثال النباتات المنتشرة على ضفاف النيل بين لوتس وبـردي وسنابل القمح الطويلة وكذلك زراعات متنوعة هنا وهناك، التي سمحت له بجدلها وتضفيرها لعمل الحصير والسلال، أما الألياف النباتية وزهر القطن فقد حولها إلى خيوط مغزولة للنسيج.

أما بالنسبة لمياه النيل التي كانت تفيض وتغطي ضفتيه وتختلط برمال الصحراء فتغذيها وتنقحها وتحولها إلى طمي صالح للزراعة، فسرعان ما تحول هذا الطمي اللين إلى مادة خام لصناعة أدوات الحياة اليومية.

قُلة وزَلعَة

والآن يا صديقي العزيز فلنسير سوياً في حي من الأحياء الشعبية في القاهرة، ونرفع رأسنا إلى «التراسينا» أي بلكونة المنزل، فكل منها فيها «صينية قلل» ذات أغطية ملونة.

ففي هذه الأجواء الشعبية، كان «جهاز العروس» لا يخلو من الفخار مثل القلة، الزلعة، الجرة، والزير. فكان أهل العروس يجب أن يشتروا لها أربع قلل مزينة ومنقوشة، بالإضافة إلى قدر السمن البلدي المصنوع أيضاً من الفخار، وكذلك قلة السبوع في الأرياف.

ففي حقيقة الأمر أن الحرف الفخارية في كثير من حضارات العالم القديم، كانت تقتصر على تماثيل صغيرة، وأدوات يومية مرتبطة بالحياة المنزلية والدينية والاحتفالية.

وفي حضارتنا الفرعونية على سبيل المثال، نُقشت على جدران المعابد أشكال كثيرة من أوانٍ فخارية أشبه بـ «القلل»، وقد حمَّلها الفنان بكثير من المعاني والرموز، التي ارتبطت بأرض مصر الحبيبة ومياهها النقية التي تميزت بحلاوة مذاقها وسحرها، الذي يمنح الشباب والحيوية، ويطهر الجسد من قوى الشر.

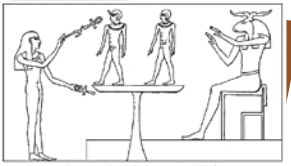

وفي هذا الإطار، نذكر أن أحد آلهة مصر القديمة وأهمها هو الإله «خنوم»، والذي اقترنت صورته بالعجلة الفخارية أو «المخرطة الدوارة» كما نعرفها بالعامية الآن. ويعتبره النحاتون المعاصرون أول نحات في تاريخ البشرية. كدليل على أهمية هذه الصناعة في المراحل المختلفة في تطور البشرية.

أمـا في العصر الإسلامي، فقد أبدع الفنان المصري في زخرفة هذه القلل فزيَّنها برسـوم نباتية وهندسية، وعبـارات من الأدعية، كما استخدمـت الأزيار والزلع لحفـظ الماء، حيث كانت تصنع من الرخام للطبقـة الأرستقراطية، ومن الفخار للطبقة الشعبية.

وفي البيـوت المصرية استخدمت ربة المنزل ما يعرف بـ «طاسة الخضة» وهي من الأواني الفخاريـة المزركشـة بالأدعية وبعض الرموز والطلاسـم، اعتقاداً منها بجلبها لشفاء أهل منزلها ودرئها للنفوس والأرواح الشريرة.

خشب وارابيسك

كثـيراً مـا يجـري الأطفـال في الحدائـق ويختـارون أضخـم جزع شجـرة للاختباء خلفـه، ولكنهـم لا يدركـون أن الإنسـان الأول قـد استغـل هـذه الجـزوع بمختلـف أحجامهـا لينحت أدوات خشبية لاستعمالته اليومية، فصنع الملاعق، الأواني، قطع أثاث صغيرة، بجانب بعض الآلات الموسيقية مثل «الهـارب» والنـاي. كما نحت قوارب تنقَّل بها على النيـل، وكذلـك أعمدةً وأسقـف لمنازلـه. وفي مصر الفرعونيـة، استغل الفنـان المصـري جـذوع الشجر لنحـت تماثيل خشبية لعل أشهرها تمثال «شيخ البلد» بالمتحف المصري.

ومـن المهم أن نعـرف أيضاً أن هـدف الفنان من وراء هـذا النوع من الفن - «فـن زخرفة الخشب» - هو منـح المتلقـي الشعـور بالبقاء والخلـود، ومن هنا تكـرار استخدامه في دور العبـادة من مساجد وكنائس.

ولعـل أبهـى عصـور هـذا الفـن، وأوسعهـا شهـرة هـو العصـر الإسلامـي، حيث أبـدع الفنان في تنويع الزخـارف، فنحت منها المتداخلـة، والمتقاطعـة، والأشـكال الهندسية والزهـور وأوراق الشجر والثمار. وعُرِف بفن «الأرابيسك» الـذي انتقـل إلى أوروبـا عـبر التبـادل التجـاري في القرنـين الخامس عشر، والسادس عشر.

ذهب وفضة

نفخر جميعاً بأن أجدادنا المصريين قد تميزوا بمهارة خاصة لتطويع كثير من معادن الطبيعة، مثل الذهب والبرونز والنحاس والفضة، بل وكانوا من أوائل مَن طرقها، وصبَّها، ونحتها، لتصبح قطعاً فنية بالغة الروعة، تحدت

الزمن، ولا تزال تبهرنا حتى الآن بفائق تقنيتها وروعة إبداعها. ولعل زيارتك عزيزي القاريء لأروقة المتحف المصري تغذي أعينك بالشواهد الرائعة التي تعكس براعة أجدادك في تشكيل المعادن والأحجار ودمجها في أعمال فنية فريدة من نوعها، علماً بأن هذه القطع قد خرجت من عمليات التنقيب الأثرية من قلب أماكن سُكنتهم وعبادتهم.

سَبَت ومشنة

أَهَّلت البيئة الخضراء الغنية، التي تحيط بالإنسان المصري، زيادة حاسة الإبداع والابتكار لديه. فقام بفنه وإبداعه باستغلال أعواد وسيقان بعض النباتات وتطويعها لما يفيده في حياته اليومية. فضغرها تارةً وجدلها تارةً أخرى، ليصنع منها الحُصيرة، سقف منزله، السلال و«المشنَّات» بديعة الصنع، لحفظ أطعمته ملابسه، كما صنع منها «مقاطف» تفيده في حياته الزراعية و«غرابيل ومناخل» لتنقية الدقيق والقمح اللازم لطعامه اليومي.

تعج المتاحف المختلفة في أنحاء العالم بأشكال وألوان من نماذج الأسبتة والمشنات ذات الضفر الدقيق عالي التقنية، وأخرى مصنوعة بعشوائية ولكنها ساهمت في الحياة اليومية للإنسان الأول.

ويحضرني الآن صبي الخبَّاز الذي يركب الدراجة ويجري هنا وهناك في شوارع مصر، ويضع على رأسه سَبَت الخبز البلدي الطازج الذي يقوم بإيصاله إلى

ربـة البيت المصرية التي تحافـظ عليه في نوع آخر من الأسبتة ذات الغطاء، لكي تحافظ على نضارة الخبز ومذاقه الطازج لأطول وقت ممكن.

الأصل خيمة والمنتج خَيامية

في حكايـات مـا قبل النوم، كانـت الجدة تحكي عن نيل مصـر ونخيلها وخيامها المتناثـرة هنا وهناك، ودعني صديقي العزيز أشرح لك أن صناعة الخيمة كانت تعتـبر حرفة من أوائـل الحرف والأعمال اليدوية التـي تعلمها ومارسها الإنسـان المصري، ليجد لنفسـه مأوى يحميه مـن تقلبات الطبيعـة، حيث استبـدل الخيمة بالكوخ.

وقـد تطـورت هـذه الحرفـة البدائيـة علـى مرِّ العصور حتى شهد التاريـخ أغلى وأثمن الخيام، أثناء عصر الدولة الفاطميـة، حيث أدخل الفنان المصـري – ولأول مـرة – أقمشة ملونـة وتصاميم وزخارف مستوحاة من الطبيعة المحيطة به.

وتطور هـذا الفن وعُرِف بالخيامية واتسـع نطاق إبداعاتـه حتى طالت النسجيـات ومعلقـات الجـدارن. ولا ننسـى أن فـن صناعـة الخيامية يعتـبر الفـن المميـز لزخرفـة كسـوة الكعبـة المشرَّفة، وقـد أنشـأت مصر أول مؤسسـة لذلـك وأسمتهـا «إدارة الكسـوة»، وهي موجودة في «تحـت الرَبع» بباب الخلق بالقاهـرة، وكانت الكسوة تُحمَـل على الجمال في احتفالية كبيرة مـن مصر إلى السعودية في موسم الحج، وكانت تسمى بـ «المحمل».

جلود وسروج

اشتهـرت المنطقة العربية بالخيل والجمال التي تعد مـن أشهر الدواب المرتبطة بالصحـراء العربية، وقـد ترتب على وجود هـذه الدواب بـزوغ صناعة السروج اللازمة لركوب الخيل والجمال، فصنع منها أشكالاً مختلفة، تحمل زخارف تدل على شخصية ممتطي هذه الدواب.

وإذا عدنـا إلى العصر الفرعوني سنجـد أجدادنا المصريين قد استخدموا جلود الحيوانات للاكتسـاء والحماية من تقلبات الطبيعـة. واجتهدوا مع مرور الزمن لإيجـاد تقنيات تنظيف الجلـود وتلوينها. ولعل من أشهـر الأمثلة على ذلك جلد الفهد الذي كان يعد الزي المميز للكاهن الأكبر في المعابد المصرية القديمة.

وجديـر بالذكـر أنـه في محتلـف العصـور كان استخـدام الجلـود في الملابـس كان مرتبطـاً بمكانـة الإنسـان في المجتمـع، حيـث كان حكراً على علية القوم.

فانوس رمضان .. حالو يا حللو

يُحكـى أنه في ليلة مظلمـة، غاب عنها القمر، ولم يُسمع فيها سوى صـوت حوافر الخيل وصهيلها معلنةً عن دخول المعز لدين الله الفاطمـي إلى مدينـة القاهـرة في موكب مهيـب، حيث خرج المصريـون فرحين ومهللـين بمشاعل ملونة لإضـاءة الطريق وإنارتـه، وعُرِفَت هـذه المشاعل فيمـا بعـد «بالفوانيس»، التي أصبحـت نتيجةً لجمـال ألوانها الزاهيـة، وإضاءتهـا البهّية، جـزءاً مهمـاً مـن التراث الشعبي المصري، وارتبطـت ارتباطـاً وثيقـاً بشهـر رمضـان الكـريم، خاصـةً أن هـذا الشهر يبدأ مع بزوغ القمر.

وفي الحقيقـة فـإن ارتبـاط شهـر رمضـان بالقمر استرجع أصل كلمة القمـر بالهيروغليفية وهـي "إيعح" وعرَّبها، وتغنى بها الأطفال عند حلول شهر رمضان بـ "وحوي يا وحوي.. إيَّاحه" ترحاباً بالشهر العظيم.

وبالحديث عن الفانوس، فإن من أجمل أشكاله المتعددة ، الفانوس ذو الزجاج الملون، حيث يعتبر أحد منتجات صناعة "نفخ الزجاج" ، وهي منتجات تتمتع بصيت وشهرة واسعة النطاق، وتملأ الأسواق هنا وهناك في أنحاء مصرنا الحبيبة.

ولعلك يا صديقي العزيز تعلم أن حرفة "نفخ الزجاج" تعتبر من أقدم وأعرق الحرف التقليدية، ويرجع تاريخها إلى العصور الفرعونية، وقد توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل. حتى عصرنا الحالي، الذي ازداد فيه اهتمام الفنانين التشكيليين بهذه الحرفة، وسعوا إلى صونها وتطويرها من خلال الجمع بين الدرايات القديمة والتكنولوجيا العصرية.

وهو ما نراه الآن في المنتجات المختلفة مثل الأكواب، الأباريق، الخرز، وكثير من المجسمات الزجاجية الأخرى المرتبطة بأشكال من الطبيعة المصرية.

معاً لنحمي كنوزنا

وبعد كل ماسبق ألست معي يا صديقي العزيز أن لكل منا دور في الحفاظ على هذه الحرف التي تشكل جزءاً من كياننا، الذي يستدعي منا الفخر والاعتزاز؟

ومن هذا المنطلق قامت منظمة اليونسكو بالدعوة لعمل قوائم حصر المعارف والتقنيات الحرفية في كل دولة، وإلزام الدول بضرورة نقلها من "الأسطى إلى الصبي" ، بل وتعظيم دور "الأسطى" بمنحة درجة أستاذ باعتباره كنزاً من "كنوز البشرية الحية" أي أحد حراس ثقافة الأسلاف، وحامل تقاليد أجداده.

بل وقامت المنظمة بوضع إطار قانوني دولي تمثل في "اتفاقية التراث الثقافي غير المادي" التي تم اعتمادها في أكتوبر ٢٠٠٣ كتعبير عن تاريخ وثقافة وذاتية الشعوب.

© (٢٠١٤) إعداد النص : چيهان زكي - جامعة حلوان
الترجمة للعربية: چيهان زكي
حقوق التصوير: صندوق التنمية الثقافية، مجلة البيت (مؤسسة الأهرام)،
المهندس علاء شقوير، الفنان عمر طلعت و كتاب وصف مصر

تم نشر هذا الكتيب الموجه لتلاميذ المدارس بفضل دعم:
المعهد الفرنسي بمصر، جمعية الحفاظ على الرامسيوم وبنك قطر الوطني الأهلي
برنتوجراف - اسامة خيري - جمهورية مصر العربية
يوزع مجاناً